

الخطاب الدينى

بين

التجديد الإسلامى... والتبديد الأمريكانى

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام الميريلاند - روكسى - القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٢٩ - تليفون ٤٥٢٦٢٤٨

Email: shoroukintl @ hotmail. com

shoroukintl @ yahoo. com

د. محمد عمارة

الخطاب الديني

بين

التجديد الإسلامي... والتبليد الأمريكي

مكتبة الشؤون الدولية

obeikandi.com

تقديم

منذ إعلان الإدارة الأمريكية، الممثلة «للمحافظين الجدد» المتحالفين مع «المسيحية الصهيونية» و«اللوبي الصهيوني» منذ إعلانها الحرب على الإسلام - الذي سمته «إرهاباً» - وعلى أمته وعالمه، عقب «قارعة» ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م .. كانت جبهة «الخطاب الدينى الإسلامى» فى المساجد .. والمدارس .. والفكر .. والثقافة .. والإعلام .. واحدة من الجبهات الرئيسية لهذه الحرب المعلنة على الإسلام.

وغير ما كتبه الأمريكيون عن ضرورة «تغيير» الخطاب الدينى الإسلامى .. وغير «الضغوط» و«الطلبات» و«الأوامر» التى مارستها الإدارة الأمريكية على الحكومات الإسلامية، و«الاعتمادات الدولارية» التى رصدت لهذا «التغيير» للخطاب الدينى الإسلامى - التى استجابت وخضعت لها الكثير من الحكومات - غير هذا «الفعل الأمريكى المباشر»، وجدنا العديد مما يسمى «بمنظمات المجتمع المدني»، فى بلادنا، التى يمولها الغرب، والتى تقوم أساساً على جهود عشرات من المثقفين الماركسيين والمتمركسين والحدائين المتغربين .. وجدنا هذه المنظمات قد انخرطت فى معركة كبرى تحت شعار تجديد الخطاب الدينى - والإسلامى منه فقط، دون سواه!

وإذا كانت الخبرة الشعبية، قد صاغت - منذ الحروب الصليبية - تلك الحكمة التي تقول: «من يأكل عيش الخواجه يضرب بسيفه»! . . . فلقد كان طبيعياً لهذه «المنظمات» والمؤتمرات التي تمولها أمريكا والغرب، أن تكون «صوت سيدها»، فتعلن، هي الأخرى، الحرب على الخطاب الدينى الإسلامى، مهيلة عليه التراب، وداعية ليس إلى مجرد «تجديده» و«تطويره»، وإنما إلى «تغييره» وأحياناً «إلغائه» بالعلمانية تارة، و«بتاريخية نصوصه المقدسة» تارة أخرى، بل وبالزندقة التي تجرح المقدسات والثوابت الإسلامية فى بعض الأحيان.

* * *

مقدمات ثلاث

ولأن قضية تجديد الخطاب الدينى قضية مركبة، بل ومعقدة، وفى الحديث عنها ما هو طيب وضرورى ومشروع. وما هو خبيث ومغلوط ومرفوض. . . كان ضرورياً أن نقدم بين يدي «فصل المقال» فيها، عدداً من المقدمات:

المقدمة الأولى: أن التجديد فى الفكر الإسلامى ولهذا الفكر الإسلامى، ليس مجرد أمر مشروع وجائز ومقبول، وليس مجرد حق من حقوق العقل المسلم على أهل الذكر والاختصاص من علماء الإسلام. . . وإنما هو سنة وضرورة وقانون، وبدون التجديد-الدائم والمستمر- للفكر والفقہ والخطاب الإسلامى، تحدث الفجوة بين الشريعة الإسلامية- التى هى وضع إلهى ثابت- وبين مقتضيات ومتطلبات الواقع- المتغير والمتطور دائماً وأبداً- الأمر الذى لو ساد الجمود والتقليد- فى الفكر والفقہ والخطاب الإسلامى- يفضى إلى «انفلات» الواقع المتطور من حاكمية الشريعة الثابتة، فىكون العجز عن أن تظل هذه الشريعة صالحة لكل زمان ومكان، فتغيب حجة الله على عباده، وهدايته لخلق، بعد أن خُتِمت الشرائع السماوية بشرعية الإسلام. . . فكون هذه الشريعة الإسلامية هى خاتمة شرائع السماء

إلى الإنسان، وصلاحتها لكل زمان ومكان، مرهونان بالتجديد الدائم فى الفكر والفقه والخطاب الإسلامى، لمواكبة مقتضيات ومتطلبات مستجدات الواقع، المتطور دائماً وأبداً، ولبقاء حجة الله على عباده قائمة إلى يوم الدين .

ولهذه الحقيقة، قال رسول الله ﷺ : «بيعت الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» - رواه أبو داود... . ولهذه الحقيقة، تبلور فى التراث الإسلامى «فن» من فنون التأليف حول «المجددون فى الإسلام»، كتب فيه القدماء وألّف فيه المحدثون .

بل لقد اتفق جمهور العلماء على أن التجديد لا يقف فقط عند «الفقه» - الذى هو علم الفروع - وخاصة فى المعاملات - وبالدرجة الأولى فى «فقه الواقع» المتطور، وفى «تنزيل الأحكام» على هذا الواقع المتطور، ومن ثم فى «الخطاب المتجدد»، والمعبر عن هذا الفقه المتجدد... . وإنما اتفقوا - أيضاً - على أن هناك نوعاً متميزاً من التجديد تحتاج إليه «الأصول»، ليس فقط أصول الفقه، وإنما حتى «أصول الإيمان»! . . ذلك أن البدع والخرافات، والزيادات والنواقص، قد تعدو على هذه «الأصول»، فتطمس حقائقها، وتحجب فعاليتها، وهنا تحتاج هذه الأصول إلى التجديد الذى يزيل عنها ركام البدع والخرافات، لتعود إلى جوهرها الحقيقى، وفعاليتها الأولى... . وذلك مثل «السيف»، إذا علاه الصدأ، فشل فاعليته، فإن تجديده لا يعنى تغييره، بل ولا تطويره، وإنما يعنى إزالة الصدأ عنه ليعود إلى مضائه وفعاليتها الأصلية من جديد... . فحتى فى «الأصول» هناك هذا اللون

من التجديد . . ولقد أشار إليه الحديث النبوي الشريف الذى خاطب به رسول الله ﷺ الصحابة - والأمة - عندما قال :

- «جددوا إيمانكم» . .

- فلما قالوا: يا رسول الله ، كيف نجدد إيماننا؟

- قال صلى الله عليه وسلم : «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله» -
رواه الإمام أحمد .

ففى شهادة التوحيد، رفض لكل الطواغيت التى يعظمها الناس ويعبدونها من دون الله - من الشهوات . . إلى الأثرة فى المال إلى الطغيان والاستبداد . . إلخ - فإحياء عقيدة التوحيد، التى هى ثورة تحرير للإنسان من قيود هذه الطواغيت، هو لون من «التجديد» المطلوب حتى لأصول الإيمان فى الإسلام .

هذا عن مبدأ التجديد للفكر والفقہ والخطاب الدينى للإسلام .

والمقدمة الثانية: أن المسلمين، منذ الاحتكاك العنيف بينهم وبين الغزوة الاستعمارية فى العصر الحديث - منذ غزوة «بونابارت» (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) وأواخر القرن الثامن عشر الميلاد - قد استجد لديهم «باعث جديد» على التجديد لخطابهم الدينى ولفقهم للواقع وللأحكام . . ذلك أن هذه الغزوة الغربية الحديثة، لم تكن كسابقتها الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١م) مجرد غزوة سيف وعنف وعضلات وقتال واحتلال للأرض ونهب للثروات، وإنما زادت على ذلك كله وتميزت بالفكر الذى جاء ليحتل العقل أيضاً، كى يتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات . . لقد جاءت هذه الغزوة بالفكر والكتاب والمطبعة

والصحيفة والمنشور و«الأيدولوجيا» مع المدفع والبارود . . لأنها كانت ثمرة للنهضة الأوروبية الحديثة، وللثورة الصناعية، ولللسفة الوضعية والعلمانية واللايدنية و«الدين الطبيعي» - دين الحداثة - والتي هي الثمرات الفكرية للسفة التنوير الوضعية العلمانية الغربية .

وأما هذا «الغزو الفكرى»، الذى جاء فى ركاب «الغزو العسكرى»، وجد علماء مدرسة الإحياء والتجديد واليقظة الإسلامية - من حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥٠ هـ - ١٧٦٦ - ١٨٣٥ م) إلى جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)، ومحمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)، ورشيد رضا (١٢٧٢ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)، ومحمد مصطفى المراغى (١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ - ١٨٨١ - ١٩٤٥ م)، ومصطفى عبد الرازق (١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ - ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م)، وعبد المجيد سليم (١٢٩٩ - ١٣٧٤ هـ - ١٨٨٢ - ١٩٥٤ م)، ومحمد الخضر حسين (١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ - ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م)، ومحمود شلتوت (١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م)، ومحمد عبد الله دراز (١٣١٢ - ١٣٧٧ هـ - ١٨٩٤ - ١٩٥٨ م) وحتى الشيخ محمد الغزالى (١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ - ١٩١٧ - ١٩٩٦ م) . . وعشرات غيرهم من أعلام التجديد - وجد علماء هذه المدرسة أن تجديد الفكر واللسفة والخطاب الإسلامى، أصبح أكثر ضرورة وأشد إلحاحًا؛ لأنه هو السبيل لتقديم «البديل الإسلامى»، الصالح لتلبية احتياجات ومتطلبات مستجدات الواقع الجديد، وذلك حتى يمتلى الفضاء الإسلامى بالبديل الإسلامى، فيزول «الفراغ» الذى صنعه الجمود والتقليد، والذى يسعى التغريب الوضعية العلمانية لملئه والتمدد فيه .

ولهذه الحقيقة - حقيقة مستجدات دواعي وضرورات التجديد - أعلن الشيخ حسن العطار - عندما احتك بعلماء الحملة الفرنسية - : «إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها». . ودعا الشيخ رفاة الطهطاوى - بعد أن خبر خطر الوضعية اللادينية الغربية فى باريس - إلى تجديد فقه المعاملات الإسلامية، ليسدّ الباب ويقطع الطريق - بالبديل الإسلامى المتجدد - على قانون نابوليون - الوضعى العلمانى المتسلل إلى دوائر التجارة ومؤسسات الحكم والقضاء والتشريع فى عالم الإسلام - . . ونهض تلميذه محمد قدرى باشا (١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ - ١٨٢١ - ١٨٨٨ م) بتقنين فقه المذهب الحنفى، لتحقيق ذات الغرض - ملء الفراغ القانونى بتجديد الفقه الإسلامى وتقنينه - . . بل وكان تقنين الدولة العثمانية لفقه المذهب الحنفى - فى (مجلة الأحكام العدلية) سنة ١٨٦٩ م - جهداً كبيراً يصب فى ذات الوعاء . . وعاء التجديد للفقه والفكر والخطاب الإسلامى، لملء الفضاء الإسلامى بالبديل الحضارى، حتى لا يملأ التعريب هذا الفضاء .

ولهذه الحقيقة، كانت الحرب الفكرية التى خاضتها مدرسة الإحياء والتجديد - فى مصر والعالم الإسلامى - هى حرباً على جبهتين :

* جبهة الجمود والتقليد، التى قال الإمام محمد عبده عن أهلها :
«إنهم وإن أنكروا كثيراً من البدع، ونحووا عن الدين كثيراً مما ليس منه، فإنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتصيده به، بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التى قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها مُنحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء»^(١).

* وجبهة التغريب والتقليد للنموذج الغربى ، التى قال جمال الدين الأفغانى عن أهلها : «إن المقلدين لتمدّن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها . . فالتمدّن الغربى هو ، فى الحقيقة ، تمدّن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى . . ولقد علمتنا التجارب ، أن المقلدين من كل أمة ، المتحليين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . . وطلّاع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات ، يمهّدون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يشبتون أقدامهم» (٢) .

ولأن هذه هى حقيقة «الإنجازات التجديدية» التى شهدتها الخطاب الدينى الإسلامى فى العصر الحديث ، فلقد انتقل هذا الخطاب نقلات نوعية وكيفية عن صورته التى كان عليها إبان حقبة التراجع الحضارى ، على عهد المماليك والعثمانيين . . والذين يقرأون فكر وفقه وخطاب آلاف الكتب التى أبدعها المثات من علماء مدرسة الإحياء والتجديد يدركون كيف أن الخطاب الدينى الإسلامى المعاصر قد أصبحت لديه «عقلانية مؤمنة» ، متميزة عن «الجمود الحرفى عند ظواهر النصوص» وعن العقلانية الوضعية اللادينية الغربية ، التى تؤوّل الدين ، فتجعله «ديناً طبيعياً» وإفرازاً بشرياً ، لا علاقة له بالدين الإلهى ، الذى جاء به نبأ السماء العظيم . . كما أصبح لدينا «فقه جديد» يحاول فقه الواقع المعيش ، فى مختلف ميادين المعاملات الإنسانية . . وفكر جديد . . وخطاب جديد لإنسان العصر الحديث .

والذى يشهد على صدق هذه الحقيقة - حقيقة تجدد الفكر والفقه والخطاب الإسلامى فى عصرنا الحديث ، واستمرارية هذا التجديد

فى واقعنا المعاصر- هو انحسار حجم مدرسة الجمود والتقليد، التى ينفر أصحابها من العقل والعقلانية، ومن التمدن والتحضر والتجدد والتطور. . فبعد تمددها فى فضاءات حقبتى المالك والعثمانين، أصبح تعداد جمهورها فى واقعنا المعاصر لا يتعدى عدة ملايين، من مليار ونصف المليار، هم التعداد الحالى لأمة الإسلام. . وما علو صوت «ناقوس» الجمود والتقليد، إلا لسبب جانبى مصنوع وموقوت، وهو الإمكانيات المالية النفطية، التى قذفت «بفكر» هذه المدرسة خارج محضنها الصحراوى العتيدي! . .

والمقدمة الثالثة: - التى نقدم بها بين يدي دراسة الخطاب الدينى - هى أن هذا الخطاب الدينى، فى أية أمة من الأمم وحضارة من الحضارات ودين من الأديان وثقافة من الثقافات، يستحيل أن يكون خطاباً واحداً، وإنما هو - دائماً وأبداً - عدد من الخطابات. . حدث هذا حتى فى الفضاءات الفكرية التى عرفت السلطة الدينية المتفردة، والكهانة المتحكمة. . ففى ظل البابوية الكاثوليكية، لم تخل الساحات من تنوع فى الخطاب الدينى الكاثوليكي. . ووجود «لاهوت التحرير» - الذى بدأ فى أمريكا اللاتينية - شاهد على أن كهانة البابوية الكاثوليكية لم تمنع التنوع فى الخطاب الدينى الكاثوليكي، وكذلك الحال فى الكهانات المسيحية الأخرى - فى الأرثوذكسية. . والپروتستانتية - وكذلك الحال - أيضاً - فى ظل الكهانة اليهودية، حيث نجد اليهودية الأرثوذكسية. . والإصلاحية. . وغيرهما. . بل ونجد ذات التنوع فى الخطاب الدينى داخل الفضاء الشيعى، رغم كهانة نظرية الإمامة، والسلطان الدينى لنواب الإمام المعصوم. . فهناك المراجع

التقدمية . . والإصلاحية . . والمحافظة . . والإخبارية . . التى يتنوع خطابها الدينى فى هذا الفضاء . . كما أن هناك فروقاً واضحة بين خطاب «الحوزات» وخطاب «الجامعات»، والخطاب الجامع بين الحوزات والجامعات . .

وهذه الحقيقة - حقيقة تنوع وتعدد الخطاب الدينى - نجدها أكثر بروزاً وتجسداً فى فضاء الإسلام السنّى، حيث لا بابوية ولا كهانة ولا عصمة لعالم دين ولا للمؤسسة من مؤسسات العلم الدينى . . فالعصمة فقط للأمة . . والفتوى غير ملزمة . . واجتهاد المجتهد غير ملزم للمجتهد الآخر .

والناظر - حتى ببادئ الرأى - فى الواقع الفكرى فى فضاء الإسلام السنّى، الذى يمثل ٩٠٪ من عالم الإسلام وأمتة، يجد:

١ - خطاب الوسطية الإسلامية . . الذى تمثله - فى علم أصول الدين - علم الكلام - «الأشعرية» و«الماتريدية»، وفى الفكر الحديث والمعاصر مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى . . وفى مؤسسات العلم الإسلامى الأزهر الشريف، والجامعات الإسلامية التى احتضنت وتحتضن كل تراث الأمة، دون تعصب لمذهب أو فرقة، والتى تستلهم من التراث - كل تراث السلف والخلف جميعاً - ما هو صالح للإجابة على علامات استفهام الواقع المعيش .

وهذا الخطاب الوسطى، يتميز - فى «نظرية المعرفة» باعتماد كل من الوحى - كتاب الله المسطور - والكون وعالم الشهادة - سنن الله فى الأنفس والآفاق - كتاب الله المنظور - اعتماد هذين المصدرين والكتابين مصدراً للعلم والمعرفة، والقراءة لهما وفيهما معاً . .

والاعتماد- فى «سبل المعرفة» وآلياتها وطرائقها- على كل من :
«العقل» و«النقل» و«التجربة» و«الوجدان»، لتصبح الثقافة
الإسلامية، والخطاب الإسلامى مزيجاً من ثمرات هذه المصادر
والآليات والروافد جميعاً . . فى هذا الخطاب يرقق القلب والوجدان
الحسابات المجردة للعقول كى ينقذها من الجفاف، وتضبط الحسابات
العقلية وتوقظ خطرات القلوب وإلهاماتها كى لا تتحول إلى
شطحات . . وينقذ النور القلبي والنظر العقلى النص والنقل الدينى
من الحرفية والجمود، ويسهم كل ذلك فى خلق فلسفة إيمانية
لتطبيقات حقائق وقوانين علوم «التجربة والحواس»- العلوم الطبيعية
والمادية- لتكون هى الأخرى علومًا مؤمنة، يصبح علماءها هم
الأكثر خشية لله- سبحانه وتعالى- خالق المادة التى فيها يبحثون،
والعقل والحواس التى بها يكتشفون الأسرار التى أودعها، سبحانه،
فى مادة هذه العلوم . . فىصبح العلم المادى، فى هذا الخطاب
الوسطى، سبيلًا لتعميق الإيمان الدينى، والعقلانية المؤمنة . . وليس-
كما حدث فى الغرب- الذى وقف فى مصادر المعرفة عند الواقع
المادى وحده، وفى سبل المعرفة عند العقل والتجربة وحدهما- سبيلًا
لإحلال العلم محل الدين، وجعل الدين «طبيعيًا»، لا إلهيًا، حتى
صاح بعض فلاسفة الحدائة الغربية تلك الصيحة المنكرة: «لقد مات
الله!»- عليهم لعنة الله! . .

هذه هى معالم خطاب الوسطية الإسلامية، الجامعة والمتجدد . .
خطاب الهدايات الأربع: العقل . . والنقل . . والتجربة . .
والوجدان . . كما كان يسميها الإمام محمد عبده، وهذا الخطاب
الوسطى هو أوسع الخطابات ذبوعًا وانتشاراً فى عالم الإسلام .

٢- وثانى ألوان الخطابات الدينية الإسلامية، هو الخطاب الصوفى، الذى يركز أكثر وأكثر على خطرات الوجدان، وعلم القلوب، والإلهامات والفيوضات التى تثمرها المجاهدات الروحية. . وهو خطاب له أهله، العارفون بمقاماته وأحواله. . الذين يمثلون- فى هذه الأرض- ما يمثله الملح للطعام: ضرورة لا غناء عنها. . لكنها لا تكفى وحدها!

وهناك، فى داخل هذا الخطاب الصوفى، ألوان من التنوع والتعدد، حسب درجات المقامات والأحوال. . ووفق درجات الالتزام بأحكام الشريعة ومنطقها. . وهو- بالطبع- مغاير لما فى كثير من «الطرق» الصوفية من بدع وخرافات لا علاقة لها أصلاً بأى أصل من أصول الإسلام، ولا قبول لها بأى معيار من معايير عقلانية الإسلام.

٣ - وثالث هذه الخطابات الدينية، فى الفكر الإسلامى المعاصر، هو الخطاب النصوصى، الذى ينفر أصحابه من النظر العقلى، فيقفون فقط عند حرفية ظواهر النصوص، دون إعمال للعقل فى مقاصد هذه النصوص. . وإذا كان حجة الإسلام أبو حامد الغزالى (٤٥٠- ٥٠٥هـ- ١٠٥٨- ١١١١م) قد قال عن إمام هذا اللون من الفقه والفكر والخطاب وهو الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٣١هـ- ٧٨٠- ٨٥٥م)- : «إنه لم يكن معنأ فى النظر العقلى»^(٣). . فإن الإمام أحمد يؤكد على «واحدية» النص- تقريباً- وليس فقط «ألوليته» فى فقه الدين والاستدلال على الأحكام. . فمنهاجه فى هذا الميدان هو الوقوف عند النص وحده- والنص بالمعنى العام- أى

العبارة- وليس بمعنى ما هو قطعى الدلالة والثبوت، الذى لا يحتمل
إلا معنى واحداً- كما هو معناه عند الأصوليين- يؤكد الإمام أحمد
على انحصاره الكامل إلى هذا المنهاج النصوصى، عندما يحدد أصول
منهجه التى نقلها عنه الإمام السلفى ابن القيم (٦٩١- ٧٥١ هـ- ١٢٩٢ م-
١٣٥٠ م) فقال: إنها خمسة:

• الأصل الأول: النصوص.

• والأصل الثانى: ما أفتى به الصحابة- وهى نصوص-.

• والأصل الثالث: -إذا اختلف الصحابة تخيّر من أقوالهم- وهى
نصوص أيضاً- .

• والأصل الرابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف، وتقديمها
على القياس- وهى نصوص هى الأخرى- .

• والأصل الخامس: القياس للضرورة..

حتى ليروى عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه فيقول: «سمعت
أبى يقول: الحديث الضعيف أحب إلى من الرأى».

وهو ذات المنهج- النصوصى- الذى صاغه الإمام أحمد شعراً
عندما قال:

دين النبى محمد آثار	نعم المظية للفتى الأخبار
لا تخدعن عن الحديث وأهله	فالرأى ليل والحديث نهار ^(٤)

هذا هو اللون الثالث من ألوان الخطابات الدينية الإسلامية، فى
واقعنا الإسلامى- التاريخى منه والحديث والمعاصر- وحجم هذا

الخطاب وحجم جمهوره - كما يعلم كل ذى علم - محدودان ، بل وهامشيان إذا ما قيسا بحجم وجمهور خطاب الوسطية الإسلامية . . لكن «المال النفطي» و«الإعلام الغربى» قد نفخا فى حجم هذا الخطاب النصوى الحرفى ، كى يوهما أنه هو الظاهرة الأكبر والأوسع انتشاراً فى عالم الإسلام ، وذلك لحجب الأنظار عن الخطاب الوسطى المعتدل ، ولتشويه الصورة العامة للخطاب الدينى الإسلامى . . وهى «لعبة» سبق ومارسها الاستشراق الغربى مع تراثنا وتاريخنا الحضارى ، عندما وقفت جهود أغلب المستشرقين عند دراسة الفرق المنحرفة والضالة والهامشية فى تراثنا - فرق الغلو الباطنى . . والشخصيات القلقة فى الاعتقاد - وذلك لتشويه مجمل الصورة الإسلامية ، ولإبراز الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى والأمة الإسلامية وكأنها ركام من «الشدوذ» و«التشردم» لا قوام له ، ولا وحدة فيه .

٤ - ورابع ألوان الخطاب الدينى الإسلامى ، فى واقعنا المعاصر ، هو خطاب الرفض والغضب والعنف والاحتجاج . وهو خطاب يمثل فصيلاً من فصائل فقه وفكر نصوصية الجمود والتقليد ، الذى استفزه بؤس الواقع الذى يعيشه المسلمون تحت هيمنة الغرب واستبداد النظم والحكومات - المصنوعة غربياً . . أو المحروسة غربياً ! - فرفض هذا الفصيل طريق «الإصلاح» واختار طريق «العنف» ، وأدار ظهره لسنة «التدرج» فى الإصلاح ، وتعجل القفز على «السلطة والدولة» - بالانقلاب - بدلاً من مشاق طريق التربية والتوعية وتهيئة المجتمعات الإسلامية ، بإعادة صياغة إنسانها صياغة إسلامية تستكمل إسلامية سجايا وشمائل هذا الإنسان . . وهو الطريق الشاق والطويل - والمضمون - للتغيير ، الذى مثل ويمثل منهاج الإسلام فى أى تغيير .

ولقد «العب» الإعلام الغربي - وتبعاً له إعلامنا المحلي - مع فصيل العنف هذا ذات «اللعبة» التي لعبها مع فصيل الجمود والتقليد، فسلط عليه كل الأضواء، كي يصل إلى المقصد الخبيث الذي أراد الوصول إليه . . فتصعد تصوير الإسلام وقرآنه الكريم ورسوله ﷺ ، على أنه دين العنف والسيف والذبح لكل المخالفين ومع جميع الآخرين!

وإذا كانت الظواهر الفكرية والاجتماعية والإنسانية، هي كمثّل الإنسان، له عقل . . وجسم . . وعضلات . . وأنياب وأظافر . . فإن فصيل العنف، والرفض، والغضب، والاحتجاج هذا - وخطابه الديني - هو بمثابة «الأنياب والأظافر» في الظاهرة الإسلامية المعاصرة . . ولقد رأينا كيف انفلتت هذه «الأنياب والأظافر» من حاكمية العقل الإسلامي فأصبحت تنهش الذات الإسلامية وتزعزع استقرار المجتمعات الإسلامية، وتهز هيبة النظم والدول الوطنية، فتخدم بذلك مخططات الأعداء، مع حسن نية وبراءة ظاهرتين لدى شباب هذا الفصيل . . بينما رأينا هذه الأنياب والأظافر، عندما خضعت لحاكمية العقلانية الإسلامية، توجه قوتها فقط إلى الأعداء، فتمثّل أنبل ظواهر العصر في الفداء والاستشهاد بمعركة تحرير أرض الإسلام ومقدساته من دنس الصهيونية والاستعمار.

وهكذا نجد أنفسنا - في الحديث عن الخطاب الديني الإسلامي - أمام ألوان من الخطابات الدينية، ولسنا أمام خطاب واحد، كما يحسب ويكتب الذين يهرفون بما لا يعرفون، في هذا الميدان . . أو الذين ينافقون فيزيفون ما يعرفون!

* * *

obeikandi.com

التبديد الأمريكاني لخطابنا الديني

لقد رأينا كيف أن تجدد وتجديد الفقه والفكر والخطاب الإسلامي، هو سنة وقانون وضرورة.. وليس ترفاً فكرياً، ولا مجرد مباح وحق من حقوق العقل المسلم.

ورأينا، كذلك، كيف وضع العقل المسلم هذه السنة والقانون في الممارسة والتطبيق - تاريخياً وحديثاً وفي وقعنا المعاصر.

ورأينا، أيضاً، أننا بإزاء خطابات إسلامية.. ولسنا بإزاء خطاب ديني إسلامي واحد.. فهناك خطاب الوسطية الإسلامية - وهو أوسع الخطابات جمهوراً وانتشاراً.. وهناك الخطاب الصوفي.. وهناك الخطاب النصوصي، المتسم بالجمود والتقليد.. كما أن هناك خطاب الغضب والعنف والرفض والاحتجاج.

وإذا كانت هذه هي ألوان وأحجام الخطابات الدينية الإسلامية، في الفضاءات الإسلامية، منذ فجر نهضتنا الحديثة، وحتى هذا الواقع المعاصر والمعيش.. فإن هذا الذي أعلنه وبعثه ويريد الأمريكان، والمنظمات، والمؤتمرات، والكتّاب الذين يمولهم الغرب، ويرعاهم، عن الخطاب الديني الإسلامي، لا علاقة له بأى لون من ألوان التجديد لهذا الخطاب.. وإنما هو يصب بكامله في خانة «التبديد»، لا «التجديد»!

لقد تعايشت أمريكا والغرب مع الخطاب الدينى الإسلامى لفصيل الجمود والتقليد - فى المجتمعات النفطية - ثلاثة أرباع القرن، عندما كان هذا الخطاب واقفاً عند إطالة اللحى، وتقصير الثياب، وتحريم شرب الدخان، والتصوير . . . وعندما كان «ولاء» هذا الخطاب للأوضاع والنظم التى تهىئ للغرب وأمريكا استغلال ثروات المسلمين، والهيمنة على بلاد الإسلام . . . وعندما كان «البراء» و«التبديع» و«التفسيق» - فى هذا الخطاب - موجهة إلى أغلبية الأمة - من «الأشعرية» و«الماتريدية» وتيار الإحياء والتجديد الإسلامى المعاصر - وطوال هذه العقود المتطاولة كانت العلاقة «سماً وعسلاً» بين الأمريكان والغرب وبين الخطاب الدينى لهذا الفصيل . . . ولقد تعايشت أمريكا مع خطاب فصيل العنف والرفض والغضب والاحتجاج، عندما تقاطعت مصالحهما إبان الجهاد ضد الشيوعية . . . فلما انشق من فصيل الجمود والتقليد نبت جديد، له «أجندة» جديدة، وخطاب جهادى جديد، يتحدث عن تحرير أرض الإسلام وتطهير مقدساته من الصهيونية و«الإمبريالية» الأمريكية، وتحريم ثروات المسلمين ومقدراتهم وإرادتهم . . . وخالف هذا النبت «السلفى الجهادى» تراث «سلفية الخضوع للسلطان» برآ كان أو فاجراً ذلك السلطان . . . هنا أصبح خطاب هذه «السلفية الجهادية» «عنفًا . . . وإرهابًا . . . ورجعية . . . وظلامية . . . وتخلفاً» يستحق حرباً صليبية عالمية، فى نظر الأمريكان وأصدقاء الأمريكان وعملائهم! . . .

ومنذ ذلك التاريخ، رأينا كتابات الأمريكان، ومقالات ومؤتمرات «منظمات المجتمع المدنى» - الممولة من أمريكا والغرب - التى

أصبحت «صوت سيدها الأمريكى»، رأينا تركيز كل هؤلاء على الحديث عن تجديد الخطاب الدينى الإسلامى، بذات المفاهيم التى يتحدث عنها الأمريكان والصهاينة، وليس بمفاهيم التجديد الإسلامى - الذى هو سنة وقانون من سنن الفكر عبر الزمان والمكان .

* فما إن أعلن الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» «الحملة الصليبية» على الإسلام - الذى سمّاه «إرهاباً» - فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م أى قبل بدء التحقيق فى أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م حتى انهالت من أفواه وأقلام الساسة والمفكرين الاستراتيجيين والكتّاب والصحفيين الأمريكان - ومعهم الكثير من نظائرهم الغربيين - وتبعاً لهم العديد من الحدائين المتغربين والعلمانيين والزنادقة وأشباه الزنادقة، فى عالمنا الإسلامى - الذين يحاربون «بسيوف الخواجة» الذى يمول «منظمات مجتمعهم المدنى» - حتى رأينا طوفان ثقافة الكراهية السوداء ينهال من هذه المصادر والأفواه والأقلام والمؤتمرات والإعلانات ضد الإسلام المقاوم، الذى يتصدى للصهيونية وأمريكا . . . وضد ثقافة الجهاد والاستشهاد التى تحرك طاقات الأمة الإسلامية لتحرير أوطانها ومقدساتها من الاغتصاب الصهيونى والهيمنة الأمريكية والغربية . . . وضد الخطاب الإسلامى الذى يقدم الإسلام منهاجاً شاملاً للحياة . . . وذلك لتحويل الإسلام - بالعلمانية - إلى صيغة نصرانية تدع ما لقيصر لقيصر الأمريكى، مكتفية من الإسلام بالشعائر والطقوس والمناسك والعبادات .

لقد انهال طوفان ثقافة الكراهية السوداء هذا على الإسلام والخطاب الدينى الإسلامى، فور إعلان الرئيس «بوش - الصغير»

لهذه «الحملة الصليبية» . . وقرأنا التصريحات . . والدراسات . . والمقالات التي شارك فيها - من أمريكا - : «جوزيف ليرمان» المرشح السابق للرئاسة الأمريكية - و«جون أشكروفت» - وزير العدل الأمريكي - و«مادلين أولبرايت» - وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق - و«صموئيل هنتنجتون» و«فرانسوا فوكوياما» و«برنارد لويس» - من أبرز مفكرى الاستراتيجية الأمريكية . . والكتاب المبرزين فى الدوائر القريبة من صناعة القرار الأمريكى - و«توماس فريدمان» و«ستانلى . أ. فايس» و«جوناثان ألتر» . . وقساوسة اليمين الدينى و«المسيحية الصهيونية» ، من أمثال «بات روبرتسون» و«جيرى فولويل» و«هول ليندسى» و«دافيد بريكز» و«فرانكلين جراهام» و«جيرى فاين» و«كلارنس واجز» و«ويليام . ج . بويكن» - الجنرال الأمريكى ، نائب وكيل وزير الدفاع ومع كل هؤلاء الأمريكان شارك - من أوروبا - فى هذا الطوفان المعادى للخطاب الإسلامى - كثيرون وكثيرون ، منهم : «سلفيو بيرلسكونى» رئيس وزراء إيطاليا - و«تونى بليير» - رئيس وزراء إنجلترا - و«مارجريت تاتشر» - رئيسة وزراء بريطانيا الأسبق - و«أوتوشيلى» - وزير داخلية ألمانيا - إلخ . . إلخ .

ولقد قرأنا فى هذه التصريحات والدراسات والمقالات معالم هذا العداء الغربى لهذا الخطاب الإسلامى . . وذلك من مثل :

«إن الحرب الحقيقية فى المنطقة الإسلامية هى فى المدارس ، ولذلك يجب أن نفرغ بسرعة من الحملات العسكرية ، لنعود مسلحين بالكتب لا بالدبابات ، لتكوين جيل إسلامى جديد ، يقبل سياساتنا ، كما يحب شطائنا .

إن مشكلة أمريكا هي مع المدارس الإسلامية، التي لا تعلم التسامح مع أمريكا وإسرائيل . . وفي هذه المدارس تكمن الأيديولوجية التي هي الآن أخطر على أمريكا من شيوعية الاتحاد السوفيتي .

إن الدين الإسلامي دين عنف . . والنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية المسيحية (الغربية) . . وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين . . وإن هذه الحرب العالمية الجديدة هي حرب المدنية والحضارة (في الغرب) ضد البربرية (في الشرق) . . وإن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب . . وإنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التي نراها ضرورية . . فالشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية، بل تعداها إلى الدول الأخرى .

وإن المعركة - في حقيقتها - ليست ضد حفنة من الإرهابيين، ولا هي حتى ضد المسلمين الذين يتعلمون من السياسة الأمريكية والانحياز الأمريكي لإسرائيل . . وإنما المعركة الحقيقية هي ضد الأصوليين الإسلاميين الذين يرفضون القيم الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة . . وهذا هو التحدي الأيديولوجي الذي هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية! . . وإذا كانت الحرب على الإسلام غير ضرورية، فإن حرباً داخل الإسلام هي ضرورية

لتحويله إلى إسلام حدائى . . لىبرالى . . علمانى . . وإن الهدف من هذه الحرب داخل الإسلام، هو تحويل التعليم الإسلامى والخطاب الدينى الإسلامى إلى طريق «أتاتورك» (١٨٨١ - ١٩٣٨م) الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها! . . فالمطلوب هو إحكام السيطرة على المدارس الدينية، وإعداد أئمة مستنيرين للمساجد، لترويج أفكار الغرب، وتشكيل الذهنية العربية لدى الجيل الجديد . . وإعادة صياغته تجاه الصراع العربى الإسرائيلى! . إن الإسلام دين الإرهاب . . وهو دين شيطانى وشرير . . ومحمد هو الشيطان نفسه . . وإن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله . . إن إلهنا أكبر من إلههم . . إن إلهنا إله حقيقى، وإله المسلمين صنم! . . وإنهم يكرهون الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأنها أمة مسيحية يهودية، وحرينا معهم هى حرب على الشيطان»^(٥).

تلك بعض من النصوص التى مثلت «الإعلان الأمريكى والغربى» للحرب الصليبية على الخطاب الإسلامى، عقب أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، والتى نشرتها الكتب والمجلات والصحف الغربية، وتناقلتها وسائل الإعلام العالمية . . وعقدت لها المؤتمرات، منذ ذلك التاريخ .

فهى - إذن - وبالاعترافات الصريحة - حرب داخل الإسلام، لتحويله وتحويل خطابه الدينى عن طبيعتهما، ليكون خطاباً للإسلام الحدائى - بالمعنى الغربى للحدائى - الذى يقيم قطيعة معرفية كبرى مع

تراثه ومنهاجه الشامل للحياة . . وبنص عبارة هذه التصريحات - عن صنيع «أتاتورك» مع تركيا: «الذى أجبر تركيا بإصرار شديد على أن تهجر ماضيها الإسلامى» . . الأمر الذى يقف بالإسلام وخطابه عند الشعائر والعبادات والمحاريب والقلوب، فيكون علمانياً، يقبل المبدأ المسيحى: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . . ويقبل القيم الغربية . . ومن ثم يتسامح مع السياسة الأمريكية والاستعمار الاستيطانى الصهيونى لأرض فلسطين، ولما بين النيل والفرات - أرض الوعد التوراتى لبني إسرائيل! . . كى يفتح الباب لهدم المسجد الأقصى، وبناء «الهيكل الثالث» على أنقاضه، حتى يعود المسيح ﷺ، فيحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد إبادة العرب والمسلمين فى معركة «هرمجدون» - بين القدس ويافا - !!

وعقب هذا «الإعلان للحرب» على الإسلام، وخطابه الدينى المقاوم للهيمنة الأمريكية وللعنصرية الصهيونية، توالى على كثير من البلاد الإسلامية «الطلبات» و«الضغوط» و«الأوامر» الأمريكية لتغيير مناهج ومواد التعليم الدينى، واختزال ساعات تدريس هذا التعليم، والوقوف به عند الشعائر والعبادات، دون شئون السياسة والحكم والمال وحقوق الشعوب فى تقرير المصير . . مع حذف ثقافة الجهاد والفداء والاستشهاد من التاريخ الإسلامى والخطاب الإسلامى .

* وبعد هذا «الإعلان» . . وعقب صدور هذه «الطلبات» و«الضغوط» و«الأوامر» الأمريكية، جاء دور العملاء الحضاريين من أبنائنا، الذين يتسمون بأسمائنا، ويتكلمون لغتنا - والذين يمول الغرب - علنا - «دكاكينهم» التى يسمونها «منظمات المجتمع المدنى» -

ليصبحوا «صوت سيدهم»، وليتحولوا - بقدرة الدولارات الأمريكية - إلى خبراء في تجديد الخطاب الديني، وهم الذين لم يعرف عن واحد منهم التخصص في العلوم الإسلامية. . ومن قرأ منهم شيئاً في هذه العلوم فلإنما قرأه ليفسر الإسلام تفسيراً ماركسياً، بمنهاج المادية الجدلية والمادية التاريخية، كى يصبح الإسلام «بناءً فوقياً» أفرزه صراع الطبقات .

لقد تجاهل هؤلاء المتمركسون والعلمانيون والحداثيون قضايا الأمة الرئيسية - في تحرير الأرض، وإنقاذ المقدسات، ومقاومة الهيمنة الإمبريالية الأمريكية. . والفريضة الغائبة في العدل الاجتماعي «والتشرذم القطري لعالم الإسلام» . الخ . الخ - تجاهل هؤلاء المتغربون - من أحفاد «بونابارت» - قضايا الأمة، وشرعوا في التركيز على «الإفتاء العلماني» في مفهومهم الأمريكي لتجديد الخطاب الديني للإسلام والمسلمين! .

* * *

الفجور العلماني بين حده الأعلى.. وحده الأدنى

التأويل العبثي للدين:

فى كل الكتابات العلمانية، التى كتبها الحداثيون المتغربون عن الخطاب الدينى الإسلامى، تراوح الطرح بين «الحد الأعلى» الذى يريد نسخ الإسلام كدين، بدعوى «تاريخية النصوص» المقدسة والمؤسّسة، أو تأويلها تأويلاً عبثياً يفرغها من خصائص الدين، على النحو الذى يحول الدين عن إلهيته فيجعله «ديناً طبيعياً» «متأسناً» و«إفرازاً من إفرازات العقل البشرى»، وليس وحيّاً إلهياً معجزاً، ولطفاً ربانياً من السماء لهداية الإنسان فى الدنيا والآخرة.

تراوح الطرح العلمانى ما بين هذا الحد الأعلى، الذى ينسخ الدين، أو يستبدل به «الدين الطبيعى»، وما بين «الحد الأدنى»، الذى لا يقنع بما دون العلمانية، التى تُخرج الإسلام عن طبيعته الشاملة لكل ميادين الحياة، وتقف به عند الصيغة النصرانية: خلاص الروح والقلوب.. ومملكة السماء.. تاركة الدنيا الإسلامية للقيصر الأمريكى الجديد.

ولقد قرأنا لأصحاب الاتجاه الأول - اتجاه «الحد الأعلى» - من دعاة «الدين الطبيعي»، وتاريخية النصوص المؤسسة للدين الإسلامي - قرأنا «فجوراً فكرياً» يقول فيه صاحبه - بعد شهرين فقط من أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م، وإعلان الحرب الأمريكية على الإسلام والخطاب الديني الإسلامي: «إننا يجب أن نلتحق «بقولتير» (١٩٦٤ - ١٧٧٨م) وتصوره الطبيعي عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقي هو الدين الطبيعي . . ولا بد من تأويل جديد يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية - أى التنويرية - محل القراءة التبجيلية لهذه النصوص»^(٦).

وقرأنا لداعية آخر من دعاة تأويل الإسلام تأويلاً يفرغه من الغيب والإلهية والإعجاز - أى يُفْرِغ الدين من الدين!، ويحوّل نصوصه المقدسة إلى نصوص بشرية تاريخية، تتجاوز التاريخ معانيها وأحكامها وحتى عقائدها وقيمها، فلم يعد فيها معنى ثابت ولا خالد ولا مطلق! . . قرأنا لصاحب هذه الدعوى - وهو الذى قدم حولها بحثاً فى مؤتمر باريس، الذى نظمه وأنفق عليه الاتحاد الأوروبى - فى ١٢، ١٣ - ٨ - ٢٠٠٣م - لتجديد الخطاب الدينى الإسلامى - قرأنا له ترديد مقولات أسياده الأمريكان - من قساوسة اليمين الدينى والمسيحية الصهيونية - التى تتهم القرآن والإسلام بأنه كتاب عنف ودين إرهاب ضد غير المسلمين! فلقد كتب - فى يناير سنة ٢٠٠٢م - لتجديد الخطاب الدينى الإسلامى - أى بعد أشهر من إعلان الحرب الأمريكية على الإسلام، وفى ذروة العدوان الأمريكى المسلح على البلاد الإسلامية - كتب يقول: «لماذا يستشهد المسلمون دائماً بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تبرز الوجه السلمى المتسامح

للإسلام، ويتجاهلون النصوص الأخرى التي تحض على القتال والقتل والإرهاب؟ مع أن هذه النصوص التي تحض على القتال نزلت بعد النصوص التي تؤكد التسامح والمساواة^(٧)؟!

وهو هنا يتحدث عن المسلمين وكأنه ليس منهم . . . ويتهم ، ليس المسلمين فقط ، وإنما القرآن الكريم ، بأنه قد شرع للقتال والقتل والإرهاب ضد غير المسلمين ، وأن هذا التشريع للقتال والقتل والإرهاب لاحق على تشريعه للتسامح والمساواة ، فكأنما آيات القتل والإرهاب - فى القرآن وفق هذا الافتراء - ناسخة لآيات التسامح والمساواة!! حتى لكأنه - وهو المنتسب للإسلام - المستشرق الصهيونى «برنارد لويس» ، الذى قال : «إن آيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين»!! أو لكأنه مؤسس «جماعة التحالف السياسى المسيحى» بأمريكا القس «بات روبرتسون» الذى قال : «إن الدين الإسلامى دعا إلى العنف . . . وإن أسامة بن لادن ، بالنظر إلى المعنى الحقيقى لآيات قرآنية ، أكثر وفاء لدينه الإسلام من آخرين» .

ولقد تجاهل كل هؤلاء - من «السادة» الغربيين و«أتباعهم» المتغربين - أن آيات «سورة التوبة» ، التى يغمزون فيها ويلمزون ، إنما دعت إلى قتال أئمة الكفر المشركين المقاتلين إبان الحرب التى أعلنها هؤلاء المشركون على الإسلام وأمته ، بعد أن فتنوهم فى دينهم وأخرجوهم من ديارهم ، لا لشيء إلا لأنهم قالوا : ربنا الله! . . . فالقتال هو فقط لهؤلاء المشركين المعتدين المقاتلين الذين نقضوا عهدهم مع المسلمين ، ونكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، والذين لا يرقبون فى المؤمنين إلا ولا ذمة - رحماً ولا عهداً - وهم المعتدون الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ، وصدوا عن سبيل الله ، وأخرجوا

الرسول ﷺ ، والمؤمنين من ديارهم ، وفتنوهم في دينهم - والفتنة أشد من القتل - .

تلك هي صفات المعتدين المقاتلين الذين شرع القرآن - في سورة التوبة - قتالهم ، قصاصاً ورداً للعدوان . . ولم تشرع آيات القرآن - في التوبة ولا في غيرها - قتال غير المسلمين ، بتعميم وإطلاق . . بل لقد استثنت آيات سورة التوبة هذه من قتال المشركين الذين لم ينقضوا عهدهم مع المسلمين ، فطلبت احترام عهودهم لقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة : ٤) ؛ كما طلبت هذه الآيات من المسلمين إجازة المشركين الذين يريدون سماع دعوة الإسلام ، ثم إبلاغهم إلى مآمنهم ، حتى مع بقائهم على شركهم بعد سماعهم دعوة الإسلام : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : ٦) . ثم إن التشريع القرآني العام في التعامل مع غير المسلمين قد أكدت عليه آيات سورة الممتحنة ، التي جعلت البر والقسط لغير المسلمين - كل غير المسلمين - الذين لا يفتنون المسلمين في دينهم ولا يخرجونهم من ديارهم ، كما جعلت القتال فقط للذين يحاربون المسلمين في الدين والوطن ردّاً لعدوانهم : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة : ٨ - ٩) . . بل وحددت الآية التي سبقت هذه

الآيات المقصد الإسلامى من هذا التشريع، وهو تحقيق المودة مع المخالفين، فقالت: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المتحنة: ٧).

ذلك هو القرآن الكريم . . . وتلك هى آيات سورة التوبة التى يغمز ويلمز فيها الجاهلون والمتجاهلون، من الغربيين والمتغربين، أعداء الإسلام والخطاب الدينى للإسلام.

لكن . . . ماذا ننتظر، وماذا ينتظر الإسلام من هذا الداعى إلى نسخ الإسلام - بالتأويل العبثى، وبتاريخية أحكام القرآن وحتى عقائده ومنظومة القيم التى جاءت فيه - والذى يقول عن الوحى الإلهى المعجز، ونبأ السماء العظيم: «إنه نص بشرى، وخطاب تاريخى، لا يتضمن معنى مفارقاً جوهرياً ثابتاً . . . فالقرآن، فى حقيقته، مُتَّجِجٌ ثقافى، تشكل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً . . . فالواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً . . . إن النص القرآنى منظومة من مجموعة من النصوص . . . وإذا كان يتشابه فى تركيبته تلك مع النص الشعرى، كما هو واضح من المعلقة الجاهلية مثلاً، فإن الفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل فى المدى الزمنى الذى استغرقه تكوّن النص القرآنى . . . الذى انحاز - فى مخاطبة النساء - لنصوص الصعاليك»^(٨).

ماذا ننتظر، وماذا ينتظر الإسلام من الذى فسر الوحى السماوى تفسيراً ماركسياً، بمعايير المادية الجدلية، فراه نصاً بشرياً، وبناء فوقياً، كونه البناء التحتى - الاجتماعى والثقافى - «ولم يكن له وجود سابق على تشكّله فى الواقع، هذا التشكّل الذى صنعتته الأبنية الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية . . فهو دياليكتيك صاعد (من الواقع الأرضي) وليس دياليكتيكا هابطاً»^(٩) (منزلاً من السماء).

وكأنما قد اكتشف - فى علاقة النص القرآنى بشعر المعلقات ما لم يكتشفه أصحاب تلك المعلقات! . . كما اكتشف فى انحياز القرآن لشعر الصعاليك ما لم يكتشفه شعراء الصعاليك أنفسهم ، فأثبت تفوق صعاليك العصر على الصعاليك القدماء!!

كما يذهب هذا الذى يريد تفريغ الإسلام من خصائص الدين - فلا تقف مجازفاته عند الخطاب الدينى - يذهب على هذا الدرب إلى تأويل النبوة وتفسير الوحي «بقوة المخيلة» ، التى تزيد لدى النبى - فى الدرجة - عنها لدى الشاعر الذى يتصل بالشیطان ، والكاهن الذى يتصل بالجان . . فاتصال النبى بالملك - الوحي - هو مجرد قوة مخيلة ، لا إعجاز فيه ولا مفارقة له عن قوانين الثقافة البشرية المعروفة . . يذهب إلى ذلك ، فيقول : «إن تفسير النبوة اعتماداً على مفهوم «الخيال» معناه : أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة ، انتقال يتم من خلال فاعلية «المخيلة» الإنسانية ، التى تكون فى «الأنبياء» أقوى منها عند سواهم من البشر . . إن «الأنبياء» و«الشعراء» و«العارفين» قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية «المخيلة» فى اليقظة والنوم على السواء . والنبوة ، فى هذا التصور ، لا تكون ظاهرة فوقية مفارقة . . ويمكن فهم الانسلاخ أو «الانخلاع» فى ظل هذا التصور على أساس أنه تجربة خاصة ، أو حالة من حالات الفعالية الخلاقة . . وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي - القرآن - لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع . . بل كانت جزءاً من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعها وتصوراتها . .»^(١٠) .

بل لقد ذهب على هذا الدرب - فى التفسير المادى والماركسى للإسلام . . ولكل دين من الأديان - إلى تجاوز الدعوة «للدين الطبيعى» فدعا إلى إلغاء حتى هذا الدين الطبيعى . . وإلغاء كل عقائد عالم الغيب حتى ولو كانت مجرد فكر إنسانى ، وليست عقائد إلهية . . وصل إلى هذا الحد ، فتساءل - تساؤل الإنكار والاستنكار - . . وما الداعى للتردد الذى يُحل «التلوين» محل «التأويل» . . ويتعارض مع تاريخية الوحي . . ويسمح باستمرار الوحي ، بكل ما يرتبط به من عقائد التوحيد والبعث والجزاء ، حتى بالمعنى المجازى - الوحي الطبيعى» (١١)!! .

فهو لا يقنع بتحويل «الدين الإلهى» إلى «دين طبيعى» . . وتحويل «حقائق الدين» إلى «مجازات» لا حقيقة فيها . . ويرى فى ذلك «تلويئاً» أثمره «التردد» . . ويدعو إلى «التأويل» الحقيقى ، الذى لا تردد فيه ، والذى يلغى الوحي ، والعقائد - بما فى ذلك «عقائد التوحيد والبعث والجزاء» - حتى ولو كانت مجرد فكر إنسانى ، لا علاقة لها بالدين الإلهى!!

بهذا «الحد الأعلى» من الفجور كتبت كُتب . . ودراسات . . ومقالات . . وأبحاث قُدمت إلى المؤتمرات التى مولها الغرب لنقد ونقض الخطاب الدينى للإسلام والمسلمين . . فهل اختلط الأمر بين الخطاب «الدينى» والخطاب «اللادينى» عند هؤلاء؟! .

وهل بلغ الهوان بأمة محمد ﷺ ، التى تملك الوحي الصحيح الوحيد على ظهر هذه الأرض . . والتى فتح صحابة رسولها ﷺ - فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الإغريق والرومان فى ثمانية قرون -

وستان بين فتح التحرير وفتح القهر والتدمير - . . والتي مثلت ديارها مقابر الغزاة والأحلام الإمبريالية على مر تاريخها الطويل .

هل بلغ الهوان بهذه الأمة أن تتعلم خطابها الديني من «العملاء الحضاريين»، الذين يحتضنهم الغرب، وينفق عليهم السحت لقاء أكاذيبهم وتكذيبهم لله والرسول والإسلام . . من مثل ذلك الذي حضر مؤتمر باريس، ودعا إلى «تبديد الإسلام»، فضلاً عن خطابه الديني! . . والذي كتب في واحد من كتبه «مقالات الفجور» التي بلغ فيها حد التكذيب لعقيدة التوحيد الديني معتبراً إياها «لعبة سياسية» لجأ إليها الرسول ﷺ، وصحابه لتكون «الأيدولوجية السياسية» لتوحيد القبائل العربية في دولة واحدة . . فقال:

«وكانت الدعوة إلى الإله الواحد تهدف إلى إحلال نظام الدولة العربية الموحدة محل النظام القبلي القائم على الصراع والتناحر، لذلك كان الإله الواحد، معبود الدولة الجديدة، هو إله إبراهيم، الجد الأعلى للعرب أولاد إسماعيل»!!!

فكأنما الوحدانية الإلهية ليست حقيقة موضوعية، دعت إليها كل الشرائع السماوية، وإنما هي مجرد «بناء فوقى» لـ «البناء التحتي» - توحيد الدولة العربية - وفق المادية الجدلية الماركسية!!! . .

وذهب على هذا الدرب فطعن في الحفظ الإلهي للقرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فقال: «إن النص القرآني لم ينبج من آثار عمليات المحو والإثبات»^(١٢)!!!

هل بلغ الهوان بأمة محمد ﷺ، الحد الذي تتعلم من هؤلاء «العملاء» كيف تجدد الخطاب الديني للإسلام؟! .

علمنة الإسلام:

وغير الذين أراؤا - بنقد الخطاب الدينى الإسلامى - إلغاء الإسلام، بتأويل عقائده وأحكامه ومنظومة قيمه، وأولاً يفرغ الدين من الدين! ودعوا إلى «تاريخية..» أو تاريخانية» النصوص المؤسسة للإسلام - وفى مقدمتها القرآن الكريم - لتتحول إلى «متحف العاديات الفكرية» التى تجاوزها التاريخ!

غير هؤلاء الذين ذهبوا على هذا الدرب إلى «الحد الأعلى» - الذى هو «الأسفل» فى حقيقة الأمر! - كان هناك الذين وقفوا عند الدعوة إلى العلمانية، وإلى علمنة الإسلام وخطابه الدينى..

ولقد مثل هذا الفريق - هو الآخر - صوت سيده الأمريكى والغربى، الذى أعلن أن الهدف من «الحرب داخل الإسلام» هى جعله علمانياً، كما صنع به كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨م) فى تركيا، بعد إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤م.. ونحن نقول للدعاة علمنة الإسلام وخطابه الدينى - الذى لن يصبح عند ذلك دينياً!!:

إن العلمانية قد مثلت جناية على النصرانية الغربية - مع أن هذه النصرانية مجرد وصايا روحية صوفية، لخلاص الروح.. وليس فيها مرجعية للسياسة والاجتماع والاقتصاد والدولة.. ومع ذلك، كانت العلمانية الغربية جناية على النصرانية الغربية، عندما استبدلت «الدين الحدائى» - دين العقل المجرد - باللاهوت والدين الإلهى، فأزاحت هذه العلمانية النصرانية من الثقافة الأوروبية.. ثم عجز هذا «الدين الحدائى» عن أن يجيب على الأسئلة الطبيعية والفطرية للإنسان، تلك التى كان يجيب عليها الدين الإلهى، فغدت أوروبا فراغاً عقدياً، لا هى نصرانية - كما كانت قبل العلمنة - ولا العلمانية

استطاعت ملء الفراغ الذى خلفته النصرانية المنهزمة . . ففقد الإنسان الأوروبي توازنه ، بغية الروح والطمأنينة القلبية عن هذا الإنسان .

ويكفى أن نقدم لدعاة علمنة الإسلام وخطابه الدينى شهادة شاهد من أهلها . . شهادة القس الألمانى وعالم الاجتماع «جوتفرايد كونزلن» التى يقول فيها : «لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى ، وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين ، وانتصاره عليه ، باعتباره مجرد أثر من حقب التاريخ البشرى ، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى . . ولقد مثلت العلمنة : تراجع المسيحية . . وضياع أهميتها الدينية . . وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية ، والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية . . وسيادة مبدأ : دين بلا سياسة وسياسة بلا دين .

ومن نتائج العلمانية : فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً . . وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم . . بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس ، وللحياة بشكل عام . . فسلطة الدولة ، وليس الحقيقة ، هى التى تصنع القانون ، وهى التى تمنح الحرية الدينية .

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحى ، يفهم الوجود بقوانين دنيوية ، هى العقل والعلم .

لكن . . وبعد تلاشى المسيحية . . سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان التى كان الدين يقدم لها الإجابات . . فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين . . وغدت الحداثة

العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتُفككُ أنساقها - العقلية والعلمية -
عدميةً ما بعد الحداثة . . فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن
أدخلت الدين المسيحى فى أزمة . . فالإنهك الذى أصاب المسيحية
أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث . . وتحققت نبوءة
«نيتشه» (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م) عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس
يفقدون (بجمهم) الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد
واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه» . . وبعبارة «ماكس
فير» (١٩٦٤ - ١٩٢٠ م): «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم،
وعلماء لا قلوب لهم» .

ولأن الاهتمام الإنسانى بالدين لم يتلاش، بل تزايد . . وفى ظل
انحسار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات
وخليط من العقائد الدينية التى لا علاقة لها بالمسيحية - ولا بالكنيسة -
من التنجيم . . إلى عبادة القوى الخفية . . والحارقة . . والاعتقاد
بالأشباح . . وطقوس الهنود الحمر . . وروحانيات الديانات
الآسيوية . . والإسلام، الذى أخذ يحقق نجاحاً متزايداً فى المجتمعات
الغربية .

لقد أزلت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا . . ثم
حجزت عن تحقيق سيادة دينها العلمانى على الإنسان الأوروبى،
عندما أصبح معبدها العلمى عتيقاً . . ففقد الناس «النجم» الذى
كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى . . ثم وعد الخلاص
العلمانى» (١٣) .

هذه شهادة عقلاء الغرب على صنيع العلمانية بالمسيحية فى أوروبا

والغرب: «خراب ديني»، تلاه إفلاس علماني، الأمر الذي أسلم الإنسان الأوروبي للقلق، الذي جعل أوروبا - رغم الوفرة المادية . . . وتخمّة الغرائز والشهوات - مكانًا لأعلى نسب الانتحار في العالم!! . . . وجعلها - رغم الإباحية الجنسية، بما في ذلك الشذوذ - تعيش أعلى نسبة للعنف ضد المرأة.

- ففي السويد ٩٥٪ من الجنسين لهم تجارب جنسية قبل الزواج! . . .

- وفي النمسا قرابة ثلثي حالات الطلاق تتم بسبب العنف المنزلي! . . .

- وفي إنجلترا أكثر من ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك . . . ولقد تضاعفت حالات الطلاق في خمسين عامًا ثلاثة وعشرين ضعفًا! . . .

- وفي فرنسا، كل عشر زيجات بينهم تسع تتم خارج الإطار الشرعي - الكنسي والقانوني - و٥٣٪ من الأمهات يضعن مولودهن الأول خارج مؤسسة الزواج! . . .

- وفي الدنمارك، زادت نسبة المواليد غير الشرعيين خلال أربعين عامًا من ٥٪ إلى أكثر من ٥٠٪ من المواليد! . . . وهذه هي نسبتهم في فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وأيرلندا.

- ولقد أصبح تقنين حرية الشذوذ الجنسي - بكل ألوانه - شرطًا من شروط دخول الدول للاتحاد الأوروبي! . . .

- وفي أمريكا ٦٠٪ من عضوات أكبر المنظمات النسائية

سحاقيات! .. و ٨٠٪ من الأمريكيات يفقدن بكارتهن قبل الزواج! .. و ٨٠٪ من جرائم القتل عائلية! .. وفيها أعلى نسبة طلاق في العالم! .. ولقد ارتفعت نسبة الجريمة فى ثلاثين عاماً . . من سنة ١٩٦٠م إلى سنة ١٩٩٠م ٥٠٠٪ . . و ٢٠٪ من السكان يتعاطون أخطر أنواع المخدرات! .. وعائد الرأسمالية الأمريكية من تجارة الدعارة فى الأطفال - وحدهم - مليارى دولار سنوياً!

- وفى عالم العلمانية الغربية - التى يريدون تعميمها فى بلاد الإسلام - ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ (ستون مليوناً) من النساء يحاولن الإجهاض كل عام! .. والتجارة الأولى - فى عالم العلمانية - هى تجارة السلاح ، تليها تجارة المخدرات ، تليها تجارة الدعارة!

فهل يراد للشرق الإسلامى أن تصنع به العلمانية ما صنعت بالغرب النصرانى؟! .. وبعبارة أدق «بالغرب الذى كان نصرانياً؟!» .. ذلك أن العلمانية قد أخرجت أوروبا عن أن تكون - كما كانت - قلب العالم المسيحى . . فالذين يؤمنون فيها بوجود إله لا يتجاوزون ١٤٪ . . والذين يذهبون إلى الكنائس لا يتجاوزون ١٠٪ . . وهم يذهبون إلى الكنائس كما يذهبون إلى حفلات الترفيه ، بإغراءات الموسيقى الصاخبة . . والاختلاط الماجن . . فحتى هذه الكنائس - التى لم تغلق بعد - قد خان الكثير منها مسيحيتها ، فغدت تزوج الشواذ . . بل ودخل نفر من كهنتها فى صفوف الشواذ! .

بل إن العلمانية قد أوصلت إنسانها إلى ألوان من الأنانية واللاأدرية والقنوط - عندما فقد «النجم» الذى يهديه - فعزف عن الزواج والإنجاب - فتحللت الأسرة - وتدنى معدل الخصوبة إلى حده

الأدنى - عالمياً - فى عالم العلمانية، حتى لقد شاع الحديث عن «موت الغرب»، وانقراض شعوبه . . وفى مقدمة الشعوب المعرضة لهذا الخطر الشعب الإيطالى - حيث الفاتيكان - !! وفى ألمانيا تغلق المدارس - مع الكنائس - لقلّة الأطفال والمؤمنين! . . وفى إنجلترا تنبأ البعض بزيادة عدد المسلمين على عدد الأنجليكانيين المتزمين دينياً بعد عدة سنوات!!

فهل يريد الحداثيون المتغربون - الداعون إلى علمنة الإسلام . . وخطابه الدينى - أن تتجرع أمتنا الإسلامية هذا الكأس المسموم للعلمنة والعلمانية؟! . . ليصبح إسلامنا، وتصبح أمتنا - دينياً . . وخلقياً . . واجتماعياً - على هذا الحال البائس الذى صنعه العلمانية بأوروبا والغرب؟!!

وهل هذه العلمانية - التى يريد الغرب والمتغربون أن نتجرع كأسها المسموم - هى الطريق إلى تمهيد الخطاب الدينى فى الإسلام؟! . .

* * *

إن الإسلام لم ولن يعرف الكهانة التى تحتكر العلم الإسلامى فى فئة من الفئات أو طبقة من الطبقات . . فقط، لا بد للحديث فى الإسلام وخطابه الدينى من «العلم» و«الاستقامة» فبدون العلم الإسلامى لا يحق لإنسان الخوض فى «الشأن الإسلامى»: ﴿وَلَا تُلْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠).

فبدون «العلم الإسلامى» يصبح الخوض فى الحديث عن الخطاب الدينى مجازفات غاشمة تتساوى مع «العدوان» . . وبدون «الاستقامة» يصبح «العلم» - فى حالة وجوده - علماً شيطانياً، يفسد ويضل، بدلاً من الهداية والإصلاح .

لذلك، يحق لنا - وللقرءاء - أن يتساءلوا: هل من حق هذا «الحدائى - الفرنكفونى» أن يشرع لأمة محمد ﷺ، كيف تجدد خطابها الدينى؟! . . هذا «الحدائى - الفرنكفونى» الذى:

يدعو إلى تعبير الأثنى بجسدها . . لأن فصاحة الجسد العارى - عنده - لا تعادلها فصاحة أخرى! . . فالجسد العارى «للموديل» - فى مرسوم الفنان - بل ولجسد آدم وحواء، هو قمة البلاغة فى التعبير! .

* وهو يدعو إلى الاحتفال بالإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م) وتزيين مياديننا بتماثيله - مع أنه هو الذى افتتح غزو الغرب للشرق . . وقهر الغرب لحضارات وديانات وثقافات الشرق، قهراً دام عشرة قرون . . حتى جاء الفتح الإسلامى فحرر الشرق من هذا القهر الحضارى .

* ولقد شارك هذا «الحدائى الفرنكفونى» فى الاحتفال بالاحتلال - بدلاً من الاستقلال - احتلال «بونابارت» (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) لبلادنا (١٢١٣ - ١٧٩٨ م) . . احتفل بهذا الاحتلال - فى ذكرى مرور قرنين عليه - عامين كاملين - هما مدة ذلك الاحتلال! .

* وكتب هذا الحدائى، متحدثاً المشاعر الفطرية للأمة - وللإنسانية - عندما قتل الصهاينة الطفل «محمد الدر» فدعا إلى «كراهية القتل» دون «كراهية القاتل الصهيونى»!! . . الأمر الذى يطرح السؤال

عن ما إذا دخل هذا «الرجل» إلى بيته فوجد من يرتكب جريمة القتل أو السرقة أو الزنا . . هل سيكره الجريمة دون المجرم؟! . . وهل تقام العقوبة على الجريمة أم على المجرم!؟

* بل لقد ذهب هذا «الحدائثي الفرنكفوني» إلى حد إنكار وجود المقدسات . . فعندما سئل عن رأيه فيما «لواصطدم المبدع الشاعر بما هو مقدس؟» . . فكان جوابه : «إن المقدس ليس كائنًا خارج الشعر أو خارج الإنسان . . المقدس مقدس لأننا نقدسه . . والشاعر يفترض أنه قد غلبته النشوة، أو روح السخرية، أو الجحود، فماذا يصنع في هذه الحالة؟ نحن نتوقع دائمًا من الشاعر أن يكتب بلغة تؤدي ما يريد أن يؤديه، لكن تظل اللغة محافظة على ما لها من جمال»^(١٤).

فالمقدس الديني - عند هذا «الحدائثي الفرنكفوني» - هو اختراع يخترعه من يؤمن به، ولا وجود له في الواقع والحقيقة . . والسخرية من هذا المقدس، والجحود له - في لحظات «النشوة» - أمر طبيعي، طالما كانت العبارة التي تعبر عن هذه السخرية وهذا الجحود، عبارة جميلة . . فقط لا غير!!

فهل من مثل هذا - وأمثاله - تتعلم أمة محمد ﷺ، كيف تجدد خطابها الديني؟! .

* * *

وصمت الجبناء عن عورات الخطابات الأخرى

إننا نسأل هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون في قضية الخطاب الدينى، من الذين يريدون «تبديد» هذا الخطاب بالعلمانية حيناً، وينسخ الدين وإلغائه بالتأويل العبثى لنصوصه المقدسة، والأحكام والعقائد والقيم التى جاءت بها هذه النصوص . . . نسأل هؤلاء الذين انطلقوا - بتمويل الغرب وتنظيماته - يتحدثون عن الخطاب الدينى عندما وضع الغرب هذه القضية فى «جدول أعمال» المنظمات والمؤتمرات التى يقيمها وينفق عليها . . . نسألهم:

- أليس هناك - فى الدنيا - خطابات دينية - غير الخطاب الإسلامى -
تحتاج إلى تجديد؟! . . . بل وأولى كثيراً جداً من الخطاب الإسلامى
بالتجديد؟!!

لم لم يتحدث واحد منهم - ولا منظمة من «منظمات مجتمعهم
المدنى» أو مؤتمر من مؤتمراتهم الممولة باليورو والدولار - عن وضع
المرأة - مثلاً - فى الخطاب الدينى لليهودية؟ وهم الذين أقاموا الدنيا
ولم يقعدوها عن وضع المرأة فى الخطاب الدينى الإسلامى؟ . . . وإذا
كان فى «الفكر» الإسلامى لون من التخلف فى النظرة للمرأة - وهذه

حقيقة - فهلا قرأوا فى النصوص المؤسسة لليهودية التلمودية، ما جاء فى سفر التكوين إصحاح ٣: ١١، ١٢، ١٦: «لقد سأل الرب آدم:

- هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لا تأكل منها؟.

- فقال آدم: المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت».

- فقال الرب للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» ١١.

ففى هذا النص التأسيسى - الذى كتبوه بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله - وليس فقط فى «الخطاب» اليهودى - تتحمل المرأة وحدها وزر الخطيئة الأولى - التى حملت البشرية كل تبعات أوزارها - الأمر الذى جعل حملها وولادتها - بل وحتى اشتياقها إلى زوجها - عقوبات إلهية للمرأة على هذه الخطيئة الأولى! ..

فأين هذا من مقالات ومؤتمرات الذين تخصصوا فى الخطاب الدينى الإسلامى، وحده .. و فقط لا غير؟! ..

وَألم يصل إلى علمهم أن التراث اليهودى يُعلم أبناءه أن يصلوا كل صباح صلاة شكر لله لأنه لم يخلق الواحد منهم عبداً ولا وثناً ولا امرأة؟! .. وللرجل - فى هذا التراث وخطابه الدينى - أن يبيع بناته إماء؟! ..

ولم لا يتكلم الغرب والمتغربون عن الخطاب النصرانى الغربى، الذى جاء فيه - عن المرأة - قول القديس «فتتيرا» (١٢٢١ - ١٢٧٤م): «إذ رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم شاهدتم موجوداً بشرياً، ولا موجوداً

موحشًا؛ لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه . وإذا ما تكلمت ، فإن ما تسمعون هو فحيح الأفعى !

وجاء - في هذا التراث . . وخطابه الدينى - قول القديس «توما الأكويني» (١٢٢٥ - ١٢٧٣م) عن المرأة: «لا وجود فى الحقيقة إلا لجنس واحد، هو المذكر، وما المرأة إلا ذكر ناقص، ولا عجب إن كانت المرأة، وهى الكائن المعتوه والموسوم بميسم الغباء - قد سقطت فى التجربة (الخطيئة الأولى) . . ولذلك، يتعين عليها أن تظل تحت الوصاية!»

أما القديس «أغسطين» (٣٥٤ - ٤٣٠م) فلقد دعا إلى «إخضاع النساء للرجال كما يخضع العقل الضعيف للعقل القوي» . . .

وقبل ذلك ، جاء فى رسالة «بولس» الأولى لأهل «كورنثوس» :

«فإن الرجل لا ينبغي أن يغطى رأسه لكونه صورة الله ومجده . وأما المرأة فهي مجد الرجل . لأن الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل . ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل» - إصحاح ١١ : ٧ - ٩ .

وجاء فى هذه الرسالة أيضاً :

«لتصمت نساؤكم فى الكنائس لأنه ليس مآذونًا لهن أن يتكلمن بل يخضعن كما يقول الناموس أيضاً . ولكن إن كن يردن أن يتعلمن شيئًا فليسالن رجالهن فى البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم فى كنيسة» - إصحاح ١٤ : ٢٤ ، ٢٥ .

فأين هى كتابات الحدائيس والمتغربين ومؤتمراتهم - الممولة من

الغرب - عن تجديد هذه الخطابات الدينية؟! . بل ، ولم يصمت هؤلاء صمت القبور عن الخطاب الدينى العنصرى لليهودية التلمودية ، التى جعلت من العنصر اليهودى وحده شعباً مختاراً لله ، ومقدساً فوق جميع الشعوب ، ودون كل الشعوب ، لياكل هؤلاء اليهود كل الشعوب أكلاً! . . ويبيدونهم ويهلكونهم هم وكل مقومات الحياة التى لديهم - وهى عنصرية تعدت حدود «الخطاب» لتضعها الصهيونية فى الممارسة والتطبيق على أرض فلسطين ، فى حماية وحراسة الغرب وخطاباته الدينية «المسيحية - الصهيونية» ، فى القرن الواحد والعشرين!!

لم يصمت كل هؤلاء الغربيين والمتغربين عن الخطاب الدينى اليهودى ، الذى يقول «عهده القديم» - فى التشريع للتطهير العرقى - : «وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أردن أريحا قائلاً: كلم إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان ، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم . تملكون الأرض وتسكنون فيها . . وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم ، يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ، يضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها ، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» سفر العدد . . إصحاح ٣٣ : ٥٠ - ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ . .

وهذا الخطاب اليهودى هو الذى يشرع «لترانسفير» - التهجير القسرى ، الذى مورس ويمارس ضد الشعب الفلسطينى منذ سنة ١٩٤٨م وحتى اليوم . . حتى لقد قذف بنحو سبعة ملايين فلسطينى من ديارهم إلى المنافى والمخيمات والمستنقعات ، دون أية حقوق للإنسان . . بل ولا حتى الحيوان!

وهذا الخطاب الدينى اليهودى هو الذى يشرع للإبادة التى تمارس الآن على أرض فلسطين - إبادة البشر والشجر والحجر وكل مقومات الحياة - وذلك انطلاقاً من «آيات» العهد القديم التى تقول - على لسان الرب - : «إن سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولاً . . فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرمها (تهلكها) بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف . . تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بعد . . لكى يرجع الرب عن حمو غضبه، ويعطيك رحمة»! سفر التثنية إصحاح ١٣ : ١٢، ١٥ - ١٧ . . فرحمة الرب «يهوه» مرهونة بإبادة الإنسان والحيوان، وحتى الطبيعة أيضاً! . .

كما يشرع هذا الخطاب الدينى اليهودى للاستعباد الجماعى . . فمن ينبج من إبادة اليهود، يقع فى العبودية والاستعباد، حتى ولو كانت هناك عقود صلح ومعاهدات وعهود! . . يشرع لذلك، فىقول - على لسان الرب «يهوه» - : «حين تقترب من مدينة لكى تحاربها، استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك . . وإن لم تسلمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يلك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك . هكذا تفعل بجميع المدن . . فلا تستبق منها نسمة ما . بل تحرمها تحريماً - (تهلكها إهلاكاً) . .» - سفر التثنية . إصحاح ٢٠ : ١٠ - ١٦ .

فالذين يسالمون ويسلمون ويعاهدون، لهم السخرة والاستعباد . .
والذين يحاربون دفاعاً عن مدينتهم لهم الإبادة والهلاك ! .

بل ويبلغ هذا الخطاب الدينى اليهودى قمة العنصرية عندما يقدر
العنصر اليهودى، ويجعله شعباً مقدساً معصوماً، دون كل
الشعوب، وفوق جميع الشعوب، ليأكل كل الشعوب، دون أن
تشفق عين اليهود على أى من هذه الشعوب، أو أن يعقدوا لهم
عهداً! . . فيقول هذا الخطاب - فى «العهد القديم» - على لسان «الرب
يهوه»، مخاطباً الشعب اليهودى: «سبع شعوب دفعهم الرب إلهك
أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم (تهلكهم) . . لا تقطع لهم عهداً،
ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم . . لأنك أنت شعب مقدس للرب
إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع
الشعوب . . لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك . ويرد
الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لا يضعها
عليك، بل يجعلها على كل مبغضيك . وتأكل كل الشعوب الذين
الرب إلهك يدفع إليك، لا تشفق عينك عليهم . . سفر التثنية
إصحاح ٧: ١-٣، ٦، ٧، ١٤-١٦ . .

فأين الحداثيون والعلمانيون ودعاة تاريخية النصوص الدينية . .
وأين المؤتمرات الممولة من الغرب، من هذا الخطاب الدينى، الذى
يمارس الآن ويطبق على أرض فلسطين، فى القرن الواحد
والعشرين؟! . .

كما يصمتون صمت القبور على نصوص التلمود التى تقول - من
خلال الخطاب الدينى اليهودى - : «إن غير اليهودى ليس أخاً . .

لذلك، يحظر على الطبيب اليهودى معالجة غير اليهودى . . حتى ولو كان مقابل أجر . . ولكن إذا كنت تخشاه فعالجه بأجر . . ومن المسموح تجريب عقار على غير اليهودى إذا كان ذلك يخدم غرضاً معيناً . . ويحظر انتهاك السبت لإنقاذ حياة مريض غير يهودى فى حالة بالغة الخطر! . . ويحظر توليد امرأة غير يهودية يوم السبت حتى مقابل أجر! . . وإذا ضاجع اليهودى امرأة غير يهودية، يجب قتلها، كما هى الحال بالنسبة للبهيمة، لأن اليهودى يتعرض للمشاكل بسببها! . . ولأن جميع غير اليهوديات عاهرات! . . ولا يجوز النصب على اليهودى . . لكن ذلك لا ينطبق على غير اليهودى! . . ولا يجوز السماح ببقاء وثنى واحد (غير يهودى) ساكناً بين اليهود، حتى ولو كانت إقامته مؤقتة، أو كان تاجراً جوالاً! . . لأنه مكتوب (فى سفر الخروج): «لن يسكنوا أرضك! . .» . . وينبغى أن يتلفظ اليهودى باللعنات إذا مر بجوار مقبرة غير يهودية، بينما يتلفظ بالتبريكات إذا مر بجوار مقبرة يهودية! . . فكل غير اليهود مخلوقات شيطانية، ليس بداخلها أى شىء جيد على الإطلاق، حتى الجنين غير اليهودى يختلف نوعياً عن الجنين اليهودى، كما أن وجود غير اليهودى مسألة غير جوهرية فى الكون، فقد تشاكل المخلوق من أجل اليهود فقط! والمرأة اليهودية العائدة من حمامها الطقسى الشهرى من أجل الطهارة، يجب أن تحاظر ملاقة أربعة كائنات شيطانية: أحد الأغيار، أو خنزير، أو كلب، أو حمار! . . وإذا حدث وقابلت أحدهم يجب أن تعيد الاستحمام مرة ثانية»^(١٥)! . .

أين جهابذة العلمانية وتاريخية النصوص الدينية من هذا الخطاب الدينى، الذى يجعل العنصر اليهودى فعالاً لما يريد . . ومقدساً

معصوماً لا يُسأل عما يفعل في سائر خلق الله؟! . . . ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
(آل عمران: ٧٥). ولماذا هذا الصمت المطبق عن هذا الخطاب الديني
الذي يقطر عنصرية ودموية، والذي يوضع اليوم في الممارسة
والتطبيق؟! .

لقد صدقت الحكمة الشعبية: «من يأكل عيش الخواجة يضرب
بسيفه»: . . . وصدق شاعرنا القديم عندما قال:
تعال الله يا سلم بن عمرو أذل المال أعناق «الرجال»!
ولا حول ولا قوة إلا بالله! . . .

* * *

وأخيراً

فإن عاقلاً لا ينكر حاجة خطابنا الدينى الإسلامى إلى التجديد . .
لكنه التجديد الذى حدده علماؤنا لمعنى التجديد . . وليس «التبديد»
الأمريكانى ، الذى يدعو إليه الحداثيون والعلمانيون . .

إن الجامعات الإسلامية التى تخرج الدعاة - والتى هبط مستواها
مع هبوط مستويات كل مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام - تحتاج
إلى وقفة جادة ، لتعود إلى المستوى الذى يضمن تخريج الدعاة الذين
يستطيعون مواجهة التحديات الشرسة التى تواجه الإسلام
والمسلمين .

وإن هذه الجامعات فى حاجة إلى أن تدرس أعمال الأفغانى
ومحمد عبده والكواكبى والمراغى ومصطفى عبد الرازق وعبد المجيد
سليم والخضر حسين وشلتوت والطاهر بن عاشور والسنهورى
وعلال الفاسى والشيخ الغزالى - وغيرهم من أعلام الإحياء والتجديد -
بدلاً من تدريس «المذكرات الهابطة» و«الكتب السطحية» التى غدت
وسيلة «للارتزاق»! . .

وهذه الجامعات فى حاجة إلى إحياء نهج العقلانية الإسلامية

المؤمنة، الجامعة - فى الخطاب الدينى - بين العقل والنقل والتجربة والوجدان . . . والتى نطقه بها الواقع والأحكام لنعقد القرآن بين فقهما . . . والتى نقرأ بها كتاب الله المسطور وكتابه المنظور - الوحى . . . والكون - فبذلك، وبذلك وحده، نقطع الطريق على الجمود والتقليد فى خطابنا الدينى . . . وعلى التغريب والعلمنة لخطابنا الدينى . . . فبالتجديد الإسلامى، لا بالتبديد الأمريكانى، يكون التقويم لما فى فكرنا وخطابنا من اعوجاج .

* * *

الهوامش:

- (١) محمد عبده (الأعمال الكاملة) ج٣ ص٣١٤ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة ط القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
- (٢) الأفغاني (الأعمال الكاملة) ص١٩٥-١٩٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. ط القاهرة سنة ١٩٦٨ م.
- (٣) الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص١٠ ط القاهرة ١٩٠٧ م.
- (٤) ابن القيم (إعلام الموقعين) ج١ ص٢٩-٣٣، ٧٦، ٧٧، ٧٩ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- (٥) انظر في تفصيل ذلك، وتوثيق هذه النصوص وغيرها- كتابنا (في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام) ص٩١-١٠٢ ط القاهرة سنة ٢٠٠٣ م. وصحيفة (الحياة) - لندن في ١٧-١٠-٢٠٠٣. وصحيفة (الأهرام) - القاهرة في ١٨-١٠-٢٠٠٣ م.
- (٦) هاشم صالح. صحيفة (الشرق الأوسط) - لندن في ١٣-١٢-٢٠٠١ م.
- (٧) د. نصر حامد أبو زيد «الإسلام والغرب: حرب الكراهية» - مجلة (وجهات نظر) - القاهرة في يناير سنة ٢٠٠٢ م.
- (٨) د. نصر حامد أبو زيد «مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق» - مجلة (القاهرة) في أكتوبر سنة ١٩٩٢ م. و(نقد الخطاب الديني) ص٨٣، ٢٨، ٢٩ ط القاهرة سنة ١٩٩٢ م. و«إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني» - مجلة القاهرة في يناير سنة ١٩٩٣ م.
- (٩) د. نصر حامد أبو زيد (مفهوم النص: دراسة في علوم القرآن) ص١٤، ٢٧، ٢٨ ط القاهرة سنة ١٩٩٠ م.
- (١٠) المرجع السابق. ص٦٩، ٥٦، ٥٩، ٣٨.
- (١١) (نقد الخطاب الديني) ص١٧٤، ١٧٩.

- (١٢) د. نصر حامد أبو زيد (الخطاب والتأويل) ص ١٣٥، ١٣٦. طبعة المركز الثقافي العربي - المغرب سنة ٢٠٠٠ م.
- (١٣) جوتفرايد كونزلن (مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا) (شهادة ألمانية) ص ٢٥-٣٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م.
- (١٤) أحمد عبد المعطي حجازي - من حوار مع (أخبار الكتاب) التي تصدر عن اتحاد كتاب مصر - عد ٣٧ - سبتمبر سنة ٢٠٠٠ م.
- (١٥) إسرائيل شاحاك (الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود) ص ٤٠ وما بعدها ترجمة حسن خضر. ط القاهرة سنة ١٩٩٤ م.

* * *

منشورات مكتبة الشروق الدولية

للدكتور محمد عمارة

- الإسلام والآخر.
- في المسألة القبطية.
- الإسلام والأقليات.
- في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام.
- مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحدثة الغربية.
- الغرب والإسلام.
- مقالات في الفلوالديني واللاديني.
- الخطاب الديني بين التجديد الإسلامي والتبديد الأمريكي.

obeikandi.com

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم مقدمات ثلاث:
٧	المقدمة الأولى : التجديد - فى الإسلام - سنة وقانون .
٩	المقدمة الثانية : التجديد الإسلامى مواجهة - وسطية -
١١	ضد الجمود - وضد التغريب
١٣	المقدمة الثالثة : تنوع وتعدد الخطاب الدينى فى الإسلام
٢١	التبديد الأمريكانى لخطابنا الدينى الفجور العلمانى بين حده الأعلى .. وحده الأدنى
٢٩	١ - التأويل العبثى للدين
٣٧	٢ - علمنة الإسلام
٤٥	وصمت الجبناء عن عورات الخطابات الأخرى
٥٣	وأخيراً
٥٥	الهوامش
٥٧	كتب الدكتور محمد عمارة

obeikandi.com

رقم الإيداع ٢٠٠٤/٢١٧٣

الترقيم الدولي 977-09-1042-2 I.S.B.N.

obeikandi.com

مطابع آمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل لياضه
لاظوغلى - القاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦